﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ [النّور: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين استئذانِ النّاسِ وبين غضِّ البصرِ وحفظِ الفروجِ

أتى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ بذِكر السَّتر ما يتعلَّق به من أمر النَّظر[1]، فبعد أنْ نَهَى سبحانه عن دخولِ البيوت المسكونة إلّا بعد استئذانٍ واستئناسٍ من أهلها، وما ذاك إلّا لحفظ أعراض النّاس لخصوصيّاتهم وأمتعتهم؛ ناسبَ هُنا أن يأمر المؤمنين بغضِّ البَصَرِ وحفظِ الفَرْج عمّا حرَّم اللّهُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغُضُّواْ﴾: (غضّ) أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدُهما على كفٍّ ونَقْص، والآخرُ على طراوةٍ، فالأوَّل الغَضُّ: غضُّ البصر، وكلُّ شيءٍ كففتَهُ؛ فقد غَضَضْتَهُ، والأصلُ الآخر: الغَضُّ: الطَّريُّ من كلِّ شيءٍ، ويُقال للطَّلْع حين يطلُعُ: غَضيض[2]، والغَضُّ والغَضاضة: الفتور في الطَّرف، وأَغْضَى إغضاءً، أيْ: دانى بين جَفنَيْه ولم يُلاقِ، وفي الآية: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾، دلَّ على كفِّ البصر عمّا حرَّم الله تعالى، وتدلُّ كذلك على الفتور في الطَّرْف والمداناة بين الجفنَيْن[3].

2) ﴿وَيَحۡفَظُواْ﴾: (حفظ) أصلٌ يدلُّ على مراعاةِ الشَّيء، يُقال: حَفِظْتُ الشَّيءَ حِفْظًا، والغَضَبُ: الحفيظة، وذلك أنَّ تلك الحالَ تدعو إلى مراعاة الشَّيء، والتَّحفُّظ: قلَّة الغَفلة، والحِفاظ: المحافَظة على الأمور[4]، وقوله تعالى: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ عمّا حرَّم الله من الزِّنى.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 222.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غض).
(3) الخليل، العين: (غضّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفظ).

3) ﴿أَزْكَىٰ﴾: (زكي) و(زكو): الزَّكاة للمال، وسُمّيت بذلك إذْ تُرجى بها زيادة المال ونماؤُه، وسُمّيت زكاةً؛ لأنَّها طُهْرَةٌ[1]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، أيْ: أطهر لكم ولنفوسكم، ولا شكَّ أنَّ غضَّ البصرِ وحفظ الفَرْجِ، ممّا تتزكّى به النَّفس، وبِزَكاءِ النَّفس وطهارتها يصير الإنسان مُستحقًّا في الدُّنيا الأوصافَ المحمودةَ، وفي الآخرة الأجرَ والمثوبةَ، وهو أن يتحرّى الإنسان ما فيه تطهيره[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شمولُ الآيةِ ما يحفظُ الإنسانَ من غضِّ للأبصارِ وحفظٍ للفُروجِ

في الآية بيانٌ لأحكامٍ كليَّةٍ شاملةٍ للمؤمنين كافَّةً يندرج فيها حُكمُ المستأذنين عند دخول البيوت اندراجًا أوَّليًّا، وهي قضيَّة غضِّ البصر وحفظ الفَرْج، فقوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ﴾ من الغضِّ بمعنى الخفض، ومنع البصر من التَّطلُّع إلى ما لا يحلُّ النَّظر إليه، والمعنى: قل أيُّها الرَّسول الكريم للمؤمنين بأن يغضّوا من أبصارهم عمّا يَحرُم أو يُكرهُ النَّظر إليه، وبأنْ يحفظوا فروجهم عمّا لا يحلُّ لهم، فإنَّ ذلك دليلٌ على كمال الإيمان، وعلى حُسن المراقبة وشدَّة الخوف من الله تعالى[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الجملةِ عن سابقتِها:

الجامعُ بين الجملتَيْن مراعاةُ آدابِ التَّعاملِ الإسلاميِّ

فصلت هذه الجملة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ عن سابقتها، لأنَّها استئناف يتضمَّن أحكامًا أخرى، وآدابًا جديدة من الآداب اللَّازمة حين المخالطة والمجالسة، فبعد أن ذكر سبحانه آداب الدخول؛ ذكر هنا ما ينبغي أن يكون بعد الدخول وهو أن لا يكون الداخل إلى البيت محدِّقًا بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته

(1) ابن فارس، مجمل اللّغة: (زكو).
(2) الرّاغب، المُفردات: (زكا).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 115 - 116.

المرأة غضَّ بصره، واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها إلَّا النَّظر الذي يعسر صرفه[1].

دلالةُ فعل الأمرِ ﴿قُل﴾ في السّياق:

من شأنِ المؤمن المُلتزم الحياءُ والعفَّةُ عن كلِّ ما حرَّم

أفاد أمره تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ وجوبَ امتثال ما جاء بعد الأمر بالقول، فغضُّ البَصَرِ وحفظُ الفَرْجِ من الأمورِ الواجبةِ على المؤمنين وعلى النّاس جميعًا، وهو من قبيل الأخلاق الاجتماعيَّة، لكنَّها هنا أفادت الإرشادَ التَّربويَّ وما تقتضيه تربيةُ النَّفس وتزكيَتُها، وجاء التَّعبيرُ بـ ﴿قُل﴾ للإشعار بأنَّ المؤمنين الصّادقين من شأنهم، إذا ما أمرهم الرَّسول ﷺ بأمر، فإنَّهم سَرَعان ما يمتثلون، ويُطيعون؛ لأنَّه ﷺ مُبلِّغٌ عن الله تعالى الَّذي يجبُ الامتثال لأمره ونهيه[2].

دلالةُ تعيينِ المخاطَبِ في: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

ديـدنُ المؤمنين عنـد الخطـابِ الانـصـيـاعُ وسرعةُ الجوابِ

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، خصَّ المؤمنين بهذا الأمر؛ لأنَّهم أَوْلى النّاس بالمخاطبة وبالإرشاد إلى ما يرفع الدَّرجات، وفي خطابهم بصفة الإيمان تذكير لهم بما ينبغي أن يكون عليه المؤمن الحقُّ من أخلاق حسنة كاملة، فإن كنتم من أهل الإيمان فالتزموا بأوامر الله تعالى وآدابه.

دلالةُ (اللّام) في شبهِ الجملةِ: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

اختـصـاصُ المؤمنين بالتَّبليغِ تحديدٌ للجهةِ المخاطَبةِ بالبلاغِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتَّبليغ، وهي الجارَّة لاسم السّامع لقولٍ أو ما في معناه، نحو: قلتُ له[3]، وللاختصاص؛ فجاءت لتخصيص المؤمنين بالتَّبليغ بما يُزكّي أنفسهم، ويحفظ سريرتهم وعلانيَّتهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/203.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 115 - 116.
(3) ابن هشام، المُغني: 1/ 213.

نكتةُ إيثارِ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ دونَ (للمسلمين):

الإسلامُ الكلمةُ، والإيمانُ العملُ

آثر السّياقُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ التعبيرَ بـ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقلْ: (قل للمسلمين)؛ ولعلَّ السِّرَّ في ذلك أنَّ الإيمان مرتبةٌ فوق مرتبةِ الإسلام كما هو معلوم، فمَنْ لم يغضَّ بصره، ويحفظ فرْجَهُ؛ فليس بمؤمنٍ، إذْ لم يمتثل بمقْتضى الإيمان، فيكون بذلك فاسقًا مُتوعَّدًا بالعقاب، ولو جاء النَّظْم الكريم: (قل للمسلمين)؛ للزمَ ألّا يكونَ مَنِ ارتكب هذه المُحرَّمات مسلمًا، بل يخرج إلى دائرة الكفر؛ لإخلاله لمقتضى الإسلام الذي هو أدنى مراتب الإيمان، وليس ذلك مُرادًا.

بلاغةُ التَّعبير بمُفردة (الغضّ):

يحتملُ الغضُّ معنى فتورِ الطَّرفِ وتحويلِ الوِجْهةِ

من بلاغة استعمال فعل الغضِّ - في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ﴾ - أنَّها استُعمِلت لأكثر من معنًى، **الأوَّل**: الفتور في الطَّرف، وما يدلُّ على المداناة بين الجفنَيْن، وعدم ملاحقةِ النَّظر، و**الثّاني**: تحويل النَّظر إلى وجهةٍ أخرى، فيكون الغضُّ كنايةً عن تحويلِ الوجهةِ، ويُؤكِّده ما ورد في البخاريِّ: وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: إنَّ نساء العجم يكشفن صدورهنَّ ورؤوسهنَّ؟ قال: اصرف بصرك، يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، وقال قتادة: عمّا لا يحلُّ لهم[1].

دلالةُ ﴿مِنْ﴾ في شبهِ الجملةِ: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾:

تعدُّدُ معاني حرفِ المعنى مُفيدٌ في البيانِ

قولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ ﴿مِنْ﴾ زائدة[2] للتَّوكيد، والمعنى: يغضّوا أبصارهم عمّا يَحْرُمُ، أو هي للتَّبعيض؛ لأنَّ من النَّظر ما يُباح، والمُراد غضُّ البصر عمّا يَحرُم، والاقتصار على ما يحلُّ[3]،

(1) البخاريّ، صحيح البخاري، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النور: 27]، 5/ 2299، والحديث ترجمة للباب.

(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 13/ 726.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 360.

وذلك أنَّ أوَّل نظرةٍ لا يملكها الإنسان، وإنَّما يغضُّ فيما بعد ذلك[1]، ويُؤيِّده الحديث: «لا تُتبِعِ النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنَّ الأولى لك، وليست لك الثّانية»[2]، وقال ابن عطيَّةَ: يصحُّ أن تكون ﴿مِنۡ﴾ لبيان الجنس، ويصحُّ أن تكون لابتداء الغاية[3].

سِرُّ تخصيصِ غضِّ البصرِ:

العلاقةُ طرديَّةٌ بين غضِّ البصرِ وزيادةِ الإيمانِ

البصرُ هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمَرُ طرق الحواسِّ إليه، وبحسب ذلك كثر السُّقوط من جهته، ووجب التَّحذير منه، وغضُّه واجبٌ عن جميع المحرَّمات، وكلِّ ما تُخشى الفتنةُ من أجله[4]، واستدعاءُ الإيمانِ مع الأمرِ بغضِّ البصر لما بينهما من علاقةٍ وثيقةٍ، يقول القاسميُّ: "وإذا استنار القلب؛ أقبلت وفودُ الخيرات إليه من كلِّ جانبٍ، كما أنَّه إذا أظلم؛ أقبلت سحائبُ البلاء والشَّرِّ عليه من كلِّ مكانٍ ...، فإذا فُقد ذلك النّور؛ بقي صاحبه كالأعمى الَّذي يجوس في حنادس الظَّلام"[5].

غرضُ جمعِ لفظِ ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾:

مناسبةُ الخطابِ لجماعةِ المؤمنينِ مفيدٌ في إيجازِ الكلامِ

في قوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ جُمعت (الأبصار)، ولم يقلِ السّياق الحكيم: (من بصرهم) أو (من البصر)؛ وذلك أنَّه إذا تقابل جمعان في كلام العرب؛ احتمل أن يكونَ من مقابلة كلِّ فردٍ من أفراد الجمع بكلِّ فردٍ من أفراد الجمعِ الآخر على التَّوزيع، وهي طريقةٌ شائعة في الإخبار عن الجماعات، ومنه قولهم: ركب القومُ دوابَّهم، أيْ: ركبَ كلُّ واحدٍ دابَّته، ومنه قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التّحريم: 6]، واحتمل أن يكونَ كذلك لكن على معنى أنَّ كلَّ فردٍ يُقابل

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 32.
(2) أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم: (2149).
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 177.
(4) الحاكم، المُستدرك، كتاب الرّقائق، رقم الحديث: 7875: 4/ 349، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 372.

بفرد غيره لا بفرد نفسهِ، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النّور: 61]، واحتمل أن يكون من مقابلة كلِّ فردٍ بجميع الأفرادِ نحو قوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [غافر: 9]، والتَّعويل في ذلك على القرائن[1]، والجمعان هنا من النَّوع الأول، بأنَّ المُرادَ بالأبصار: أبصارُ المؤمنين، باعتبار التَّوزيع بين أفرادِ ضمير الجماعة في قوله: ﴿أَبْصَٰرِهِمْ﴾ وبين أفراد المؤمنين، وقل مثله في الجمع في قوله تعالى: ﴿فُرُوجَهُمْۚ﴾، وفائدة تقابُلِ الجمعين بيانُ أنَّ الخطاب للجميع، فلا يقلْ أحدٌ: إنّي في منأًى عن الفتنة، فالأمر بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج موجَّهٌ إلى جميع المؤمنين.

دلالةُ إضافةِ ﴿أَبْصَٰرِهِمْ﴾ و﴿فُرُوجَهُمْۚ﴾ لضمير الجمع:

بيانُ قدرةِ الإنسانِ على التَّحكُّمِ ببصرِهِ وفَرْجِهِ

إضافةُ الأبصار والفروج لضمير الجمع هي بمعنى اللّام، فالأبصارُ والفروج هي ملك للمُخاطَبين، وذلك للدَّلالة على قدرة الإنسان، وأنَّ له مشيئةً في اختيار الفعل وتركه، وقدرةً على التَّحكُّم بتوجيه نظره، وصرف بصره، وحفظ فرجه، كما يدلُّ ذلك أيضًا على تنبيه المخاطَبين على المسؤولية في حفظ أبصارهم وفروجهم ممّا يغضب الله تعالى، وعدم الانجرار وراء شهواتهم.

دلالةُ عطفِ حفظِ الفروجِ على غضِّ الأبصارِ:

العلاقةُ بين النَّظرِ الحرامِ والفاحشةِ علاقةُ السَّببِ بالمسبَّبِ

في قوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ﴾ عُطِفَ حفظُ الفروج على غضِّ الأبصار، وجُمع بينهما بحرف الجمع (الواو)؛ للدَّلالة على ارتباط قضيَّة غضِّ البصر بحفظ الفَرْج، وكأنَّهما شيءٌ واحدٌ، وذلك فيه مبالغةٌ في إفهامِ المُخاطَبين أنَّ النَّظر الحرام سريعًا ما يُؤدّي إلى ارتكاب المحرَّمات، كالزِّنى وما يجرُّ للزِّنى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 189.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿وَيَحۡفَظُواْ﴾:

الـحـرصُ على حـفـظِ النَّـفس من الـزِّنى منهجٌ في العفَّةِ جليلٌ

جاء قوله تعالى: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ بصيغة المضارع لفائدة تجدُّد الاهتمام بحفظ الفروج؛ خشية الوقوع في المحظور، وأنَّ وساوس الشَّيطان مُستمرَّةٌ مُتناوبةٌ على بني آدم يُريد إيقاعه في المُحرَّمات والزِّنى، فاقتضى ذلك تجدُّد حرصِ المؤمن على حفظ فرْجِه من مراتع الزِّنى.

غرضُ جمعِ لفظِ ﴿فُرُوجَهُمۡۚ﴾:

الاحتشامُ صفةُ المجتمعِ المؤمنِ الحَييِّ

جُمعت (الفروج) في قوله: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ انسجامًا وتناسبًا مع خطاب جماعة المؤمنين، ولبيان أنَّ الخطاب عامٌّ للجميع، فلا يقلّ أحدٌ: إنّي في منأًى عن الفتنة، فجميعُ المؤمنين موجَّهٌ الأمرُ إليهم في حفظ الفُروج، كما هو في حفظ الأبصار، ثمَّ ما في حفظ الفُروج من دلالة الاستتار والاحتشام باعتبارهِ صفةً من صفات المجتمع المؤمن بالله تعالى.

فائدةُ دخولِ ﴿مِنۡ﴾ على (الأبصار) دون (الفروج):

أمرُ غضِّ البصرِ أوسعُ من حفظِ الفَرْجِ

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾، من الأسرار الَّتي تَدُقُّ على الأفهام، دخول ﴿مِنۡ﴾ الجارَّة على غضِّ الأبصار دون حفظ الفروج[1]، والسِّرُّ في ذلك أنَّ أمر النَّظر أوسع لأنَّ منه المباح ومنه المحرَّم، فالمحارمُ لا بأس بالنَّظر إلى شعورهن وصدورهن، وكذا الجواري المُستعرَضات، ويَنظرُ من الأجنبيَّة إلى وجهها وكفَّيها، وأمّا أمر الفَرْجِ؛ فمُضَيَّقٌ.

بلاغةُ تقديمِ غضِّ الأبصارِ على حفظِ الفروجِ:

الـنَّـظـرُ بـريـدُ الـــزِّنى، ومـن متابعةِ النَّظرِ يكونُ الخطرُ

قُدِّم غضُّ الأبصارِ على حفظِ الفروجِ؛ لأنَّ النَّظر بريدُ الزِّنى ورائد الفجور[2]، وإنَّما بداية الشَّهوة عمومًا تكون بإتباع النَّظرةِ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 18/ 256.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 363.

النَّظرةَ، فيعتاد النّاظر على ذلك، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، وهو الباب الأكبرُ إلى القلب، وأعمرُ طُرُقِ الحواس إليه[1]، فلمّا كان النَّظرُ ذريعةً للزِّنى؛ قصَدَ المتذرِّعَ إليه بالحفظ تنبيهًا على المبالغة في غضِّ الأبصار في محاسن النِّساء، فالمُراد بحفظ الفروج حفظُها من أن تُباشِرَ غير ما أباحه الدّين[2]، وبلاغة التَّقديم والتَّأخير - في الأمر بحفظ الفَرْجِ عقب الأمر بغضِّ البصر - جاءت على طريقة التَّرقّي.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تعظيمُ شأنِ المُشارِ إليه، وهو تزكيةُ النَّفسِ المعلومةِ لديه

اسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ يرجع إلى المذكور، أيّ: ذلك المذكور من غضِّ الأبصار وحفظ الفروج[3]، والأصلُ في اسم الاشارةِ أن يُشارَ به إلى الأشياء المشاهدةِ المحسوسة، واستعماله في غير ما يُدركُهُ الحسُّ مجازٌ لتنزيله منزلةَ المحسوس[4]، فنكتةُ استعمال اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ - في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ - تمييز الشَّيء المقصود أكملَ تمييزٍ بالإشارة المحسوسة إليه، وتنزيل الأشياء المعقولة منزلةَ المحسوسة المشاهدة، وفائدة ذلك هو تعظيمُ شأن المُشار إليه باعتباره الأصل في هذا الخطاب، فمَنْ غضَّ البصرَ، وحفظَ الفَرْج؛ فقد زكَّى نفسه.

بلاغةُ النَّشْرِ المُجملِ:

بيانُ أهمِّ العناصرِ في تزكيةِ النَّفسِ وصيانتِها

الآيةُ من قبيل اللَّف والنَّشر، إذْ ذُكرت عناصر تزكيَةِ النَّفس، وهي غضُّ البصر وحفظ الفَرْج، ثمَّ نشرها مُجملةً في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ فأفاد ذلك أنَّ النَّفس لا ترقى إلى التَّزكية إلّا بشيئَيْن رئيسَيْن، هما: غضُّ البصر وحفظُ الفَرْجِ مجتمعَيْن، ثمَّ تأتي الأمور الأخرى تباعًا.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 33.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 204.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 204.
(4) الرّضيّ، الرّضي على الكافية: 2/ 30.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّة ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ﴾:

الـثَّـبـاتُ على الاسـتـقـامـة ضـمـانٌ لـصـون النَّفسِ إلى يوم القيامة

تدلُّ الجملة الاسميَّة على القوَّة والثَّبات، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ﴾ دالٌّ على أنَّ الالتزام بما أمر الله به من غضِّ البصر وحفظ الفرج في قوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾، سببٌ عظيم من أسباب تزكية النَّفس وتطهيرها، وهكذا هو الالتزام بشرع الله تعالى وحفظ حدوده، فإنَّه كلّه طهر وتزكية؛ ويكون في تزكيَةِ النَّفس ثباتًا لها على الاستقامة والصُّمود، أمام مُغريات الحياة ممّا يعترض الإنسان من شهوات وملذّات؛ فيكون بحسب هذا التَّوجيه القرآنيِّ قد حاز الثَّبات والاستقرار أمامها، وحصَّن النَّفس بتزكيتِها، فدلَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ﴾ على تمسُّكِهم بالتَّزكية والطُّهر، وهو ما يستحقّون به الثَّناءَ والمدحَ، ويُمكن أن يُقال: إنَّه تعالى خصَّ في الخطاب المؤمنين؛ لِما أراده من تزكيَتِهم بذلك، ولا يليق ذلك بالكافر.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿أَزۡكَىٰ﴾:

بـيـانُ مـلامـحِ الكرامةِ والتَّزكيةِ الشّاملةِ للأمَّةِ

قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ﴾ عبَّر بصيغة أفعل التَّفضيل لقصد المبالغةِ في التَّنويه بشأن هذا الفعل، وأثره في المجتمع، فإنَّ المُفاضلةَ في الحال الكليِّ، أي: الحال الَّذي يصله المؤمنون مع هذا الفعل، أزكى من أيِّ حال يصله مجتمعٌ آخرُ بدون هذه التَّوصيات، فغضُّ البصر وحفظُ الفَرْج أطهرُ في الدّين، وأبعدُ من دنس الأنام[1]، وهو الأمر الَّذي تميَّزت به المجتمعاتُ الإسلاميَّة عن سائر المجتمعات الأخرى، ممّا أورثها الكرامةَ والتَّزكية الشّاملة والطُّهر العامَّ، وذكر ابن عاشور أن اسمَ التَّفضيلِ في قوله: ﴿أَزۡكَىٰ﴾ مسلوبُ المفاضلة، والمُراد تقويةُ تلك التَّزكية؛ لأنَّ ذلك جُنَّةٌ من ارتكاب ذنوب عظيمةٍ[2].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 204.

نوعُ اللّامِ في ﴿لَهُمۡۚ﴾ ومعناها:

تحقيقُ مكاسبِ الإيمانِ والتَّزكيةِ

أراد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ تحقيقَ كسبٍ لهم ناتجٍ عن تلك الطّاعات في التَّزكية، وهي غضُّ البصر وحفظ الفَرْجِ، وفائدةً تتحقَّق لهم بسُموِّ الحياة وصيانة النَّفس عن ارتكاب الأخطاء، الَّتي قد تُؤدّي إلى ارتكاب الفواحش والكبائر، ومفادُ ﴿أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ أنَّ الغضَّ عمّا حرَّم الله تعالى النَّظر إليه وحفظ فُروجِهم عن الإفضاء بها إلى مُحرَّم، أو عن الإبداء والكشف هو غضٌّ وحفظٌ أطهر للنُّفوس، وأتقى لدين الله القدّوس[1].

غرضُ التَّوكيدِ في جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

توعُّد غيرِ الملتزمِ بسوءِ المصيرِ وأخذه من العليم الخبير

خُتِمت الآيةُ بما ظاهرُهُ التَّوعُّد[2]، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ لأنَّ التَّوكيد يأتي في خطاب مَنْ يكون في نفسِهِ شكٌّ، فأكَّد بمؤكِّدات، ودلَّ على توعُّد مَن لا يلتزم بهذه الأخلاق، بصرف النَّفس عن كرامة التَّزكية، وجرِّها إلى المُحرَّمات والموبقات، وهذا ما استحقَّ توعُّد المُخاطَبين.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَد:

تحذيرُ المؤمنين من الوقوعِ في الموبقاتِ المُهلكاتِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، أفاد التَّقديمُ هنا تقويةَ المعنى وتوكيده؛ إذ أفاد تقديم المُسنَد إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على المُسنَد: ﴿خَبِيرُۢ﴾ تقويةَ هذا المعنى، وهو علم الله وإحاطته بما تصنعه أيديهم من السّيئات، وفي العبارة تعريضٌ بالَّذين لا يحفظون أبصارهم وفروجهم، وينغمسون في شهوات الحياةِ، فالله تعالى خبيرٌ بما يصنع هؤلاء، فعلى المؤمنين أن يحذروا من عقاب الله تعالى.

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّلذُّذُ بذِكْرِ اللهِ تعالى من أرقى اللَّذائذِ وأشرفِها

وإظهارُ لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 370.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 178.

- مع أنَّ مقتضى الظّاهر الإضمار - لإدخال الرَّوع في ضمير السّامع وتربية المهابة عند سماعه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تشريعٍ يناسبه إيثار المهابةِ والتَّعظيم في هذا الحكم، ولتكون الجملةُ مُستقلَّةً بنفسها؛ لأنَّها بمنزلة الحِكمة والمَثَل، ثمَّ ما في ذِكْر اسم الله تعالى من التَّلذُّذ والانشراح.

سرُّ التَّعبيرِ بالأُلوهيَّةِ دون الرُّبوبيَّةِ:

تزكيَةُ النَّفس ركنٌ في صلاحِ العبادةِ للهِ وحسنِ أدائها

أمّا سبب ذِكْرِ الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة؛ فلبيان عظيم شأن هذا الخطاب، وأنَّ غضَّ البصر وحفظ الفرج يؤثِّران تأثيرًا مباشرًا في تزكية النَّفس أوَّلًا، ولصلاح العبادة لله تعالى وحسن أدائها وجودتها والخشوع فيها ثانيًا؛ لأنَّه كما ورد في الحديث الشَّريف: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهامِ إِبْلِيسَ مَسْمومَةٌ، فمَنْ تَرَكَها مِنْ خَوْفِ اللهِ؛ أَثابَهُ جَلَّ وعَزَّ إيمانًا يَجِدُ حلاوَتَهُ في قَلْبه»[1]؛ ولأنَّ المقام مقامُ ترهيبٍ، فيناسبهُ ذِكرُ اسمهِ العَلم دون الرَّبِّ الذي يناسب في مقام التَّرغيب.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ ﴿خَبِيرٌ﴾:

إحاطةُ اللهِ بأفعالِ عبادِهِ دليلٌ على قدرتِهِ وواسعِ معرفتِه

جاء اسم ﴿خَبِيرٌ﴾ على صيغة الصِّفة المُشبَّهة؛ للدَّلالة على ثبوت صفة الخِبرة لله تعالى، وهو مأخوذٌ من: خبُر فلانٌ الأمرَ؛ إذا علمه علمًا لا شكَّ فيه، وصارت الخِبرة صفةً ذاتيَّةً له، فدلَّ على أنَّه تعالى عظيمُ خبرة بعباده، وبما يصنعونه في حياتهم اليوميَّة، فقد أحاط بهم تمام الإحاطة، وخبُرَ ما يفعلونه، ويصنعونه تمام الخبرة.

دلالةُ (ما) في السّياقِ المُحكَمِ:

إحاطةُ خبرةِ اللهِ بجميعِ أفعالِ العبادِ إحاطةً تامَّةً مُطلقةً

في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ نجد أنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ لذوات ما لا يعقل، ولصفات مَن يعقل، وأسماءُ الموصولات من صيغ العموم، فتفيد (ما) شمولَ خبرة الله تعالى جميع ما يصنعونه، وهو

(1) الحاكم، المُستدرَك، كتاب الرّقائق، رقم الحديث: (7875).

معنًى متَّسعٌ للغاية، لا يكاد يُحصيه بَشَرٌ، لكنَّهُ عند اللّهِ أمرٌ ميسورٌ مُحاطٌ به، واللّهُ خبيرٌ بهِ سبحانه.

وجهُ اختيارِ مفردةِ ﴿يَصْنَعُونَ﴾ دون مرادفاتها:

اخـتـصـاصُ الصِّناعةِ ببني آدم مَلمَحٌ جديرٌ بالتَّنويهِ

الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنْعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات، كما ينسب إليها الفعل[1]؛ لذلك فقد اختُصَّت الصِّناعة ببني آدم، واختُصَّت في الآية بالمُكلَّفين منهم، واقتضت الصِّناعة خبرة، فناسب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَصْنَعُونَ﴾:

تـجـدُّدُ أفـعـالِ الـعـبـادِ مع استمرارِ حياتِهم في الـنّـجـادِ والوهادِ

دلَّ الفعلُ المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ على الحال والاستقبال، لأنَّ المضارع "يشترك فيه الحاضر والمستقبل"[2]، ومن ثَمَّ تكون فائدة المضارع في قوله: ﴿يَصْنَعُونَ﴾ هي شمول علم الله تعالى لما يتجدَّد ممّا يصنعون مع الزَّمن، فما دامت الحياة مستمرَّةً؛ فإنَّ أفعال العباد تتجدَّد، واللّه يعلمها جميعًا، لا يخفى عليه شيء منها.

غرضُ حذفِ مفعولِ: ﴿يَصْنَعُونَ﴾:

دعـوةُ الـنّـاسِ إلى إعادةِ النَّظرِ فيما يصنعون إرشـادٌ إلى لُـبِّ الحقائقِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَصْنَعُونَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، وفيه تنشيطٌ لخيالِ المتلقّي، ودعوى غير مباشرةٍ له للبحث والتَّفكُّر والتأمُّل بما يصنعه هو أو غيره، فتكون فرصةً للمراجعة الذّاتيَّة بما يخفيه في نفسه ممّا لا يرغب أن يطَّلع عليه النّاس، وعن ذلك يصف عبد القاهر الجُرجانيُّ الحذفَ، بقوله: "هو بابٌ دقيقٌ المَسلكِ لطيفُ المأخذ، عجيب الأمر، شبيهٌ بالسِّحر"[3]، فيأخذ المتلقّي بإيحاء مناسبٍ إلى تأمُّل فيما غاب عنه، فيرقى إلى تحقيق غاية الخطاب، وهو العَود عن كثيرٍ ممّا نصنع، ممّا لا يرضاه الله تعالى، ولبيان

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 493.
(2) الزّمخشريّ، المُفصّل: 2/ 137.
(3) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 111.

عظيم ما قد أحاط اللّه به، ممّا يصنع النّاس من الأفعال الظّاهرة والباطنة على سبيل التّعميم، مع ما في الحذف من رِعاية الفاصلة.

بلاغةُ التّذييلِ:

ذُيِّلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وهي كنايةٌ عن جزاء ما يتضمَّنه الأمر من الغضِّ والحفظ؛ لأنَّ المقصد من الأمر الامتثال[1]، والطّاعة للّه سبحانه، فاستحقَّ مَنْ يُعرض أن يُجازى على أعماله وصنيعه، وفيه مراعاةٌ للفاصلة في الآية السّابقة ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ واللّاحقة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾.

استحقاقُ النّاسِ الجزاءَ على صنيعهم عدلٌ من اللهِ وإنصافٌ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَصَر والنَّظَر:

(بصر) الباء والصّاد والرّاء أصلان، أحدُهما العلم بالشَّيء، يُقال: هو بصيرٌ به، ومن هذه البصيرة والبرهان، وأصل ذلك كلِّه وضوحُ الشَّيء، ويُقال: رأيته لمحًا باصرًا، أيْ: ناظرًا بتحديقٍ شديدٍ، ويُقال: بصُرتُ بالشَّيء؛ إذا صرتَ به بصيرًا عالمًا.

أصلُ البَصَرِ والبَصيرَةِ هو الوُضوح في الشَّيء

وأمّا الأصل الآخر؛ فبُصْر الشَّيء غِلظه، ومنه البَصْرُ، وهو أن يُضمَّ أديمٌ إلى أديم، يخاطان كما تُخاط حاشيةُ الثَّوب، والبصيرة: ما بين شُقَّتي البيت، وهو إلى الأصلِ الأوَّل أقربُ، فأمّا البَصْرةُ؛ فالحجارةُ الرِّخوة، فإذا سقطتِ الهاء؛ قلت: (بِصْر) بكَسْرِ الباء، وهو من هذا الأصل الثّاني[2].

(نظر) النّون والظّاء والرّاء أصلٌ صحيحٌ يرجع فروعه إلى معنًى واحدٍ، وهو تأمُّل الشَّيء ومعاينته، ثمّ يُستعار، ويتَّسع فيه، فيُقال: نظرتُ إلى الشَّيء، أنظر إليه؛ إذا عاينتَهُ، ويقولون: نظرتُه، أي: انتظرتَه، وهو ذلك القياس، كأنَّه ينظر إلى الوقت الَّذي يأتي فيه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»